الفصل الثالث

مفهوم المعجزات وحكمها ووجه دلالتها

المفهوم اللغوى

لفظ المعجزة إسم فاعل مأخوذ من العجز المقابل للقدرة[١] وقد استخدم هذا اللفظ على سبيل المجاز ذلك أن الإعجاز فى الحقيقة هو إثبات العجز، فاستعير الإعجاز لإظهاره، ثم اسند مجازا إلى ما هو سبب العجز (وهو الفعل الخارق) وجعل إسما له مجازا مرسلا علاقته السببية.

وبمعنى أوضح: إن المعجزة حقيقة لاتثبت عجز المعارضين وإنما تظهره فقط وأما السبب الحقيقى فى إثبات العجز فهو الله سبحانه وتعالى فاطلاق الإعجاز على المعجزة من باب إطلاق السبب وإرادة المسبب والتاء للمبالغة أو للتأنيث[٢] وعرفها صاحب الطحاوية لغة بأنها كل خارق للعادة[٣].

علما بأن ابن تيمية لا يستحسن استخدام لفظ المعجزات وإنما يفضل استخدام لفظ «دلائل النبوة» أو «أعلام النبوة» ويقول إن هذه الألفاظ إذا سميت بها آيات الأنبياء كانت أدل على المقصود من لفظ المعجزات، ويستأنس لذلك بأن لفظ المعجزات لم يرد فى الكتاب والسنة بل ورد بدلا منه لفظ البرهان، والآية كما جاء فى قوله تعالى «ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات» وقوله عن معجزه اليد والعصى «فذلك برهانان من ربك» وقوله «وإن يرو آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر»[٤].

---

(١) ذهب أبو هاشم إلى أن المقابلة هنا من مقابلة العدم بالملكة كالبصر والعمى، بينما ذهب الأشعرى إلى أنها من تقابل التضاد والإعجاز لغة: نسبة العجز إلى الغير من عجز عنه أى ضعف والمعجزه هى اعجاز الخصم عن التحدى ويقال أعجز الرجل أخاه إذا أثبت عجزه عن شىء «القاموس المحيط» جـ ٢ ص ١٨١ والمصباح المنير جـ ٢ صـ ٥٢٨ وقال تعالى «وماهم بمعجزين» «وما انتم بمعجزين فى الأرض ولا السماء».

(٢) العقائد النسفية صـ ٤٥٩.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية صـ ٢٣٥.

(٤) راجع صـ ٦٧ جـ ٤ من الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

وقد ورد هذا الرأى معزوا إلى الإمام أحمد ابن حنبل[١].

المفهوم الإصطلاحى:

وضع العلماء للمعجزة تعريفات كثيرة منها:

١ – تعريف أبى الحسن الأشعرى الذى يقول فيه: المعجزة هى فعل من الله أو قائم مقام الفعل يقصد بمثله التصديق.

٢ – وعرفها الإمام الرازى بأنها أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى مع عدم المعارضة.

٣ – وعرفها بعض المعتزلة بأنها الفعل الذى يدل على صدق المدعى للنبوة[٢].

وسوف نختار تعريف الإمام الرازى لنشرح فى ضوئه مفهوم المعجزة شرحاً شاملا مستوعبا كل المحترزات وفى أثناء ذلك نقارن بين التعريفات المختلفة.

شرح تعريف الرازى:

عرفها بأنها «أمر» ولم يقل فعل كما قال المعتزلة، لأن المعجزة لها صور كثيرة فهى أحيانا تكون فعلاً كحنين الجذع إلى رسول الله وانشقاق القمر ونطق الشاه، وأحياناً تكون قولا كتلاوة الرسول للقرآن حين أنزله عليه جبريل، وكإخباره بالمغيبات.

وأحيانا لا تكون قولا ولا فعلا بل تكون تركا وكفا كعدم إحراق النار إبراهيم عليه السلام، أو أن يقول النبى معجزتى أن أضع يدى على رأسى وأنتم لا تستطيعون ذلك، فيفعل، ويعجز القوم ومن هذا النوع التحدى بالعصمة من إذاية الخلق. فبعد نزول قول الله تعالى «والله يعصمك من الناس[٣]» صرف الرسول

---

(١) قارن صـ ٢٧ من المعجزة وكرامات الأولياء لابن تيمية تحقيق مصطفى عبد القادر عطا.
(٢) القاضى عبد الجبار – الأصول الخمسة صـ ٥٦٧ وما بعدها.
(٣) المائدة: ٦٧.

حراسه وقال عصمنى ربى ولم يستطع أحد أن ينال منه على الرغم من المحاولات المتعددة فكل هذه صور للكف أو الترك.

فكلمة (أمر) أشمل وأعم من كلمة (فعل) التى وردت فى تعريف المعتزلة إذ لاتشمل كلمة فعل كل هذه الصور إلا بنوع من التكلف، فقد جعلوا معجزة ترك الإحراق لإبراهيم هى جعل النار أو كونها بردا وسلاما أو إبقاء الجسم على ما كان عليه. وهذا تمحل وتكلف لا داعى له.

وأجاب ابن دهاق برد المعجز فى الترك إلى العلم بذلك والإخبار به على وفق الواقع(١).

وواضح أيضاً أن كلمة أمر أفضل من قول الأشعرى (فعل من الله أو قائم مقام الفعل) وإن كانت نسبة الفعل إلى الله عند الأشعرى تضفى على التعريف مهابة واحساسا برد الأشياء إلى خالقها ومسببها وهو الله تعالى.

وقوله (خارق للعادة) أى خارج على ما اعتاده الناس ومخالف لنواميس الكون وقوانينه وسننه التى ألفوها.

وخرج بذلك الأمور المعتادة كأن يقول معجزتى أن تشرق الشمس من المشرق وتغرب من المغرب.

هذا وقد قسم ابن تيمية الخوارق إلى نوعين:

١ – ما يقع على أيدى الأنبياء والرسل لإثبات رسالتهم وهو المعجزات.

٢ – ما يقع على أيدى غير الرسل، ويقسمه إلى ثلاثة أقسام:

(أ) محمود فى الدين وهو الكرامات.

(ب) مذموم فى الدين وهو ما يأتى على وجه منهى عنه فى الدين كأعمال السحرة والذين يستخدمون الجان.

---

(١) شرح السنوسية الكبرى صـ ٤٤٢.

(جـ) مباح أى لا محمود ولا مذموم، فإن كان فيه منفعة للإنسان كان نعمة وإن لم يكن فيه منفعة كان كسائر المباحات التى لا منفعة فيها[١].

وقوله «مقرون بالتحدى» أى أن ظهور الأمر الخارق للعادة لابد أن يكون فى الوقت الذى يدعى فيه النبى أنه مرسل من عند الله تعالى، لأن الخارق شهادة من الله بصدق المدعى والشهادة لا تتأخر عن الدعوة بل تعقبها مباشرة، وخرج عن ذلك أيضاً بعض الخوارق الاتفاقية فقد انكسفت الشمس ساعة دفن ابراهيم (ابن رسول الله ﷺ) وتصايح المسلمون حول القبر: إنها لآية من آيات الله أن تنكسف الشمس لموت ابن محمد.

ولو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم من أولئك الذين يتصيدون المصادفات والاتفاقيات لنسبة الخوارق إليهم، لما كلفته هذه الخارقة إلا أن يؤيد ما ادعاه بعض المسلمين، أو كان على الأقل يسكت عنها فلا يدعيها ولا ينكرها، ولكنه لم ينس فى ساعة حزنه أمانة الهداية للمؤمنين بدينه، ففاجيء الحاضرين بهذه المقالة الفاصلة «إن الشمس والقمر آيتان لله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله».

وهكذا تأتى الخوارق طائعة لمحمد صلى الله عليه وسلم فيصدقها الناس ويرفضها محمدا صلى الله عليه وسلم[٢].

فأية عظمة أكبر من أن ينسى الرسول رسالته فى أشد المواقف التى تملأ النفس بالفجيعة والهول. ولقد وقف من تناول من المستشرقين هذا الحدث موقف الإجلال والاعظام لمحمد صلى الله عليه وسلم، وعلى الرغم من حقدهم على الرسالة الإسلامية لم يستطيعوا، كتم أعجابهم وإكبارهم، وإعلان عرفانهم بصدق رجل لا يرضى فى أدق المواقف إلا الصدق والحق[٣].

---

(١) ابن تيمية – المعجزة وكرامات الأولياء صـ ٤٠.

(٢) قارن صـ ٦٥ من المجلد الخامس من المجموعة الكاملة للعقاد.

(٣) د. محمد حسين هيكل «حياة محمد» ص ٤٦٤.

وقد جرى خلاف بين العلماء حول جواز تأخير ظهور المعجزة إلى مابعد وفاة الرسول أم لا[١] وهو خلاف لاطائل تحته، بل توهم لصور لم تحدث ولن تحدث مما يعفينا من ذكر هذا الخلاف.

وخرج بقوله مقرون بالتحدى أنواع الخوارق التى لا تقترن بدعوى النبوة والتحدى مثل:

١ – الكرامة :

وهى أمر خارق للعادة غير مقرون بالتحدى ودعوى النبوة يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم بمتابعة نبى كلف بشرعته مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح علم بها أو لم يعلم[٢].

وعرفها سعد الدين التفتازاتى بأنها أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد ظاهر الصلاح ليس بنبى فى الحال ولا فى المآل.

والفرق بينها وبين المعجزة من وجوه:

١ – أن الكرامة لا تكون مقرونة بالتحدى خلافا للمعجزة.

٢ – أن الكرامة لا تكون عن اختيار وقصد من الولى.

٣ – أن الكرامة لا تكون على دعوى الولاية بينما المعجزة على دعوى النبوة.

٤ – أن كل ما وقع معجزة لنبى لا يقع كرامة لولى.

٥ – وذكر الامام ابن حزم فرقا آخر يتعلق بطبيعة كل من الكرامة والمعجزة وهو أن المعجزة قد تصل إلى حد قلب الأعيان على الحقيقة واختراع الأجسام وإحالة الطبائع، بينما لا تصل الكرامة إلى هذا الحد فلا يمكن ظهور مثل هذه الأمور على أيدى الصالحين ولا لأحد غير الأنبياء.

---

(١) شرح السنوسية الكبرى صـ ٤٥٠.

(٢) محمد فريد وجدى – الإسلام فى عصر العلم صـ ٥٩١.

وقد خالف فى هذا الأمر «أبو بكر الباقلانى» حيث جوز ظهور مثل هذه الأمور على أيدى الصالحين وعلى سبيل الكرامة وعلى أيدى الفاسدين على سبيل السحر ولم يفرق بينهما إلا بقيد المقارنة للتحدى فقط.

ونبه ابن حزم على خطأ هذا الرأى وأشار إلى أن الرأى الأول هو رأى أهل الحق(١).

كما يرى ابن تيمية أن كرامات الأولياء تكون من جنس معجزات الأنبياء بلا فرق ويستشهد على هذا بأن النار قد صارت بردا وسلاما على أبى مسلم كما صارت على ابراهيم.

وكما يكثر الله الطعام والشراب لكثير من الصالحين كما جرى فى بعض المواطن للنبى ﷺ، ويبرر ابن تيمية لهذا الرأى بأن هذه الكرامات مؤكدة لآيات الأنبياء، وهى من معجزاتهم بمنزلة ما تقدمهم من الإرهاص، إلا أنه يعود فينقض ما قاله، بقوله «ومع هذا فالأولياء دون الأنبياء والمرسلين، فلا تبلغ كرامات أحد قط إلى مثل معجزات المرسلين»(٢).

حكم الكرامة:

الكرامة ثابتة بالكتاب والسنة خلافا لما ذهب إليه المعتزلة من إنكارها.

ذلك أن المسلم إذا صح إسلامه علما وعملا وارتقى من الإيمان إلى الإحسان، قد تخرق له العادة وتظهر على يديه الكرامة عند الحاجة قال تعالى «ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب»(٣).

وقال «إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا» وقال «ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة»(٤).

---

(١) الفصل جـ ٥ وما بعدها تحقيق د: عبد الرحمن عمير وزميله.
(٢) راجع كتاب النبوات صـ ٤ وما بعدها.
(٣) الطلاق – ٣.
(٤) يونس – ٦٢ – ٦٤.

وقال رسول الله ﷺ «أتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».

إذا فالكرامة لا تكون إلا بمتابعة كل ما ورد فى الكتاب والسنة أو كما قالوا إنما الكرامة لزوم الاستقامة، وقال أبو على الجوزجانى «كن طالبا للاستقامة لا طالبا للكرامة فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة وربك يطلب منك الاستقامة»(١).

غير أن عدم ظهور الخوارق على يد الملتزمين بالشرع ليس معناه أنهم أقل رتبة عند الله.

يقول ابن تيمية: «إعلم أن عدم الخوارق علما وقدرة لا تضر المسلم فى دينه، فمن لم ينكشف له شىء من المغيبات، ولم يسخر له شىء من الكونيات لا ينقصه ذلك فى مرتبته عند الله بل قد يكون عدم ذلك أنفع له، فإنه إن اقترن به الدين وإلا هلك صاحبه فى الدنيا والآخرة(٢).

ويقول صاحب العقيدة الطحاوية: «وأما ما يبتلى الله به عباده من السر بخرق العادة أو بغيرها، فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه، بل قد سعد بها قوم إذا أطاعوه وشقى بها قوم إذا عصوه»(٣).

ومعنى هذا أنه لا تلازم بين الكرامة وبين الولاية، فقد يكون وليا وليس له كرامه، ولا يقع على يديه أى خارق من خوارق العادات، كما أن الله قد يجرى الخوارق على يد شخص ليس وليا. بل ليس مطيعاً لله كما يحدث على يد السحرة والدجالين.

وأما إنكار المعتزلة للكرامات، فلا عبرة به، ولا دليل عليه، فمذهب أهل السنة والجماعة هو الإيمان والتصديق الجازم بكرامات الأولياء.

---

(١) شرح الطحاوية صـ ٣٣٦.

(٢) ابن تيمية – المعجزة وكرامات الأولياء ص ٤٣.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٣٧.

وقد دل على ذلك القرآن، فقد نسب كثيراً من الخوارق إلى عباد صالحين ومنهم: قصة أصحاب الكهف، وقصة مريم، والذى عنده علم من الكتاب مع سليمان فى سورة النمل.

كما دل على ذلك أيضاً وقائع السنة النبوية، فقد ثبت أن عمر بن الخطاب كان على المنبر فنادى بأعلى صوته ياسارية الجبل[١] - وسمعه سارية وهو بنهاوند فتحصن بالجبل من الأعداء، وكما ورد فى قصة العلاء بن الحضرمى وهو من الصحابة، فإنه لما ذهب إلى البحرين سلكوا مفازه وعطشوا عطشا شديدا حتى خافوا الهلاك، فنزل فصلى ركعتين ثم قال ياحليم ياعليم ياعظيم اسقنا، فجاءت سحابة فأمطرت حتى ملأوا الآنية وسقوا الركب.

ثم انطلقوا إلى خليج من البحر ما خيض من قبل ذلك اليوم. فلم يجدوا سفنا فصلى ركعتين، ثم قال ياحليم ياعليم ياعلى ياعظيم أجزنا ثم أخذ بعنان فرسه، ثم قال: جوزوا باسم الله، قال أبو هريرة - رضى الله عنه - فمشينا على الماء فوالله ما ابتل لنا قدم ولا خف ولاحافر، وكان الجيش أربعة آلاف.

وكذلك حادثة أم أيمن لما خرجت مهاجرة واشتد بها العطش سمعت صوتا من فوقها فرفعت رأسها، فإذا هى بدلو من ماء فشربت منه إلى غير ذلك مما يطول ذكره[٢].

ولكن ما الفائدة من وقوع الكرامات:

والجواب:

أولاً : أنها تدل على قدرة الله سبحانه وتعالى وشمول علمه. وأن لله سننا وأسبابا لا يقع عليها علم البشر ولا تدركها عقولهم.

ثانياً : أنها تدل على صدق الرسول الذى يتابعه هذا الولى، لأن الكرامة لم تحصل له إلا بسبب متابعته لتعاليم الرسول، ولذلك قالوا إن وقوع الكرامات

---

(١) المقاصد جـ ٢ صـ ١٥٠.

(٢) الأسئلة والأجوبة الأصولية على العقيدة الوسطية ص ٣١٥ - عبد العزيز المحمد السلمان.

للأولياء فى الحقيقة معجزات للأنبياء، لأنها لم تحصل لهم إلا ببركة متابعة نبيهم الذى نالوا بسببه خيرا كثيراً من جملته الكرامات.

ثالثاً : قيل إنها من المبشرات بالخير لمن ظهرت على يديه[١].

٢ – السحر : وهو أمر خارق للعادة يظهر على يد نفس شريرة بمباشرة أعمال مخصوصة يجرى فيها التعلم. والفرق بينه وبين المعجزة والكرامة من وجوه. منها:

أولاً : أن السحر من مقدورات البشر ومن أفعالهم المعتادة – خلافا للكرامة والمعجزة فهى خارجة عن مقدور البشر، لأن فى المعجزات قلبا للحقائق والأجناس. خلافا للسحر فهو مجرد تخييل.

– إن السحر لا يستخدمه إلا الفاسقون والكفرة والأشرار، بينما المعجزة والكرامة لا تكون إلا على يد النبى أو الولى.

قال تعالى عن السحرة: «واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان. ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنه فلا تكفر فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه، وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم. ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق، ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون»[٢].

وقال تعالى: «هل أنبئكم على من تنزل الشياطين، تنزل على كل أفاك أثيم، يلقون السمع وأكثرهم كاذبون»[٣].

---

(١) ابن تيمية – الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ ٤ ص ١٧٠ القاهرة. مطبعة المدنى وقارن صـ ٤٤٧ من شرح السنوسيه.

(٢) البقرة الآية ١٠٢.

(٣) الشعراء الآية (٢٢١ – ٢٢٣).

بينما يقول القرآن عن الأنبياء الذين تظهر المعجزة على يديهم: «الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس»[١]، «الله أعلم حيث يجعل رسالته»[٢].

– السحر يأتى بالتعليم والاكتساب[٣] بينما المعجزة والكرامة هبات ومنح من الله تعالى.

– السحر يعارض بسحر مثله، بينما المعجزات لا تعارض. والسحر ثابت بالكتاب والسنة فسورة القلم نزلت رقى لرسول الله ﷺ من سحر لبيد بن عاصم له حتى مرض النبى ثلاث ليال، كما ورد إثبات السحر فى سورة البقرة «ويعلمون الناس السحر».

كذلك ورد فى حديث رسول الله ﷺ كنوع من أكبر الكبائر. وقد يقول قائل إن السحر كان معجزة لرسول من رسل الله، هو موسى – عليه السلام – فكيف يخرج من أنواع المعجزات، وكيف يوصف بما وصف من صفات؟

والجواب أن ما جاء به موسى لم يكن سحرا وإنما كان معجزة إلهية، ولم يكن ما صنعه مجرد تخيل أو سحر لأعين الناظرين – كما صنع سحرة فرعون، وإنما كان معجزة حقيقية خارجة عن نطاق البشر.

ولذلك كان أول من آمن بموسى هم السحرة، لأنهم أعرف الناس بالسحر ومقدماته ونتائجه. وقد أيقنوا أن ما جاء به موسى معجزة حقيقية، جعلتهم يسجدون لله خالق هذه المعجزة على الرغم من تهديد فرعون ووعيده لهم بالصلب وتقطيع الأيدى والأرجل إلا أنهم: قالوا «لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض، إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى»[٤].

---

(١) الحج ٧٥.
(٢) الأنعام ١٢٤.
(٣) سعيد حوى – الرسول ص ٣٤٠.
(٤) طه (٧٢ – ٧٣).

ومن هنا فما وقع على يد موسى لم يكن سحرا وإنما كان معجزة حقيقية خارجة عن إمكانيات وقدرات البشر المعاصرين له، لأن العصا إنقلبت إلى حية انقلابا حقيقيا واستحالة طبيعتها من الجمادية إلى الحيوانية، وذلك من اختصاص الله سبحانه وتعالى، ولا يظهره إلا على يد الأنبياء تصديقا لهم.

أما السحر فليس فيه إحالة طبائع وذلك لقول الله تعالى: «فإذا حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى» حيث أخبر تعالى أن عمل السحرة كان مجرد تخييل لا حقيقة له. وقال تعالى «إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى».

فأخبر تعالى – أنه كيد لا حقيقة له، ولو كان الساحر قادراً على قلب حقائق الأشياء لالتبس بالنبى»(١).

٣ – الإرهاص : وهو أمر خارق للعادة يظهره الله قبل بعثة النبى تأسيسا لدعواه وذلك مثل إظلال الغمام لرسول الله ﷺ.

٤ – المعونة : وهى أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مستور الحال من العوام تخليصا له من محنة أو ضائقة.

٥ – الإهانة : وهى أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى النبوة تكذيباً له فى دعواه، كما وقع لمسيلمة الكذاب حين تفل فى عين أعور لتبرأ فعميت السليمة.

٦ – الاستدراج : وهو أمر خارق للعادة يظهره الله على يد مدعى الألوهية استدراجا وخديعه له ومكرا به(٢).

ويكون هذا الخارق على حسب طلبه يستدرجة الله به، ليزداد عتوا وظلما كما ورد فى شأن المسيخ الدجال وظهوره قرب قيام الساعة مدعيا الألوهية ومعه أعوان له، ويقول للسماء إمطرى فتمطر ومن أذعن له أدخله جنته التى تكون معه

---

(١) الفصل ص ١٠٣ جـ ٥.

(٢) راجع تفسير الزمخشرى جـ ٤ صـ ١٥٠.

فتطرحه الملائكة فى نار جهنم، ومن عصاه أدخله ناره التى معه فتطرحه الملائكة فى الجنة[١].

وفرق بين ظهور الخارق على يد مدعى النبوة وظهوره على يد مدعى الألوهية، فهو على وفق مراد الثانى دون الأول، لأن مدعى الألوهية واضح كذبه ودعواه مفضوحة لا يصدقها عقل، فلا يلتبس أمره على العقلاء ذلك أن حاله مكذب لمقاله: فهو يدعى الألوهية وهو أعور والله ليس كذلك، كما إن المسيخ الدجال – كما اخبر الرسول – مكتوب بين عينيه كافر يقرؤها كل مؤمن سواء أكان قارئا أم غير قارىء – كما أن الله تعالى لا يراه أحد إلا يوم القيامه حيث يراه المؤمنون[٢].

ولذلك يظهر الله الخارق على وفق مراده استدراجاً له، أما مدعى النبوة فلايجوز أن يأتى الخارق على وفق مراده حتى لا يلتبس أمره بالنبى فالنبى بشر وهذا بشر يدعى الرسالة، فلو كان الخارق على وفق مراده لربما التبس على الناس أمره ولذلك كذبه الله فورا بظهور الخارق على عكس مراده، وإلا كان الأمر تصديقا للكاذب وهو محال على الله[٣].

هذا وقد اختلف العلماء فى جواز ظهور المعجزة على يد الكاذب وخلافهم لاحاصل له إذ الجميع متفقون على امتناع ذلك فى الواقع. وقد دار خلافهم حول تعليل هذا الامتناع من ناحية العقل أو العادة وبما أنهم متفقون على القضية الإساسية فليس هناك ما يدعو لعرض اختلافاتهم ويكفينا ذكر ما اتفقوا عليه فقط وهو جوهر القضية[٤].

ويلحظ أن الأهانة والاستدراج لا يخرجان بقيد المقارنة للتحدى، لأن أصحابهم يدعون النبوة أو الألوهية، وإنما يخرجان بقيد التصديق الذى ورد فى

---

(١) راجع صـ ٦٠ وما بعدها جـ ١٨ من صحيح مسلم ط الريان.

(٢) راجع صـ ٢٧١ جـ ٤ من الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح.

(٣) المقاصد جـ ٢ صـ ١٣٣.

(٤) راجع تفاصيل هذا الخلاف فى كتاب المواقف والمقاصد والتمهيد وغيرها من كتب التراث فى علم الكلام.

تعريف الأشعرى، إذ الأهانة المقصود منها تكذيب مدعى النبوة والاستدراج المقصود منه خديعة مدعى الألوهية والمكر به لا تصديقه.

٧ – علامات الساعة : فانها أمور خارقة للعادة ولا تكون مقرونة بالتحدى ولذلك زاد بعضهم فى تعريف المعجزة قيدا آخر وهو أن تكون فى زمان التكليف، لأن ما يقع فى الآخرة لا يعد معجزة لكونه زمان نقض العادات.

٨ – غرائب المخترعات : وهى الأمور التى وصل اليها العلم الحديث مثل العقول الالكترونية والرجل الآلى ومخترعات الفضاء وغير ذلك مما يسميه بعضهم بالمعجزات العلمية، والواقع أن هذه التسمية خطأ فالفرق شاسع والبون بعيد بين حقيقة المعجزة وبين ما جد أو يجد فى العالم من عجائب المخترعات، فالمعجزات ليست لها أسباب معروفة حتى تلتمس ويؤتى بمثلها أما هذه المخترعات، فان لها أسبابا معروفة عند أصحابها ويمكن معرفتها لمن لم يعرفها بيسر وسهولة متى تعلم أصولها[1].

٩ – كذلك يخرج بهذا القيد خارق آخر وهو (الفراسه) وهى معرفة بواطن الأمور من ظواهرها وهى نوعان: نوع يكون إلهاماً من الله حيث يوقعه الله فى قلوب أوليائه، فيعلمون أحوال بعض الناس ويفسرون بعض الوقائع التى تخفى على الناس.

وهذا النوع أشار إليه الرسول بقوله «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» وهو يدخل تحت الكرامة.

وأما النوع الثانى : فهى فراسة تأتى بالإكتساب والعلم والتجارب وبها تعرف أحوال الناس وصفاتهم وأخلاقهم[2] مما لا يستطيعه عامة الناس فيظنونه نوعا من الإخبار عن المغيبات فيلتبس عليهم الأمر، مع أن الفراسة تأتى بالدربة والخبرة وتعتمد على الذكاء البشرى خلافا للمغيبات فهى بإفاضة من الله وليس لها مقدمات، ولا تجارب يمكن للذكى أن يستخدمها ليصل إليها كالفراسة.

---

(١) الزرقانى – مناهل العرفان جـ ١ صـ ٦٩.

(٢) راجع لسان الميزان – ابن منظور ٣٧/ ٣٣٧٩.

ومعنى (مقرون بالتحدى) أى بدعوى النبوة أو طلب المعارضة.

وقوله (مع عدم المعارضه) المراد به ألا يظهر مثله ممن ليس بنبى، وأما من نبى آخر فلا امتناع واحترز بهذا القيد عن السحر والشعوذة[1] والكهانة وكل ما يمكن اكتسابه بالتعلم فانه قابل للمعارضة.

نقد تعريف الرازى

اعترض بعض العلماء على تعريف الإمام الرازى بثلاثة اعتراضات:

الأول : إن التعريف غير مانع من دخول غيره فيه لأنه خلا من قيد الظهور على يد النبى ومن جهته، فقد يأتى كاذب ويتخذ معجزة نبى معاصر حجة له، كما أنه خلا من قيد الموافقة للدعوى مع أن هناك خوارق مكذبة كأن يقول معجزتى أن أحى ميتا فيميت حيا، أو أحياه فنطق بأنه كذاب.

والجواب : عن هذا الاعتراض : أن ذكر (التحدى) يتضمن القيدين وهما قيد الظهور على يد المدعى وقيد الموافقة للدعوى.

لأن معنى التحدى : طالب المعارضة فيما جعله مصدقا لدعواه ولا يثبت التصديق له إلا إذا كان هذا الخارق موافقا له، كما أن التحدى مشعر بأن الأمر الخارق واقع على يديه اذ من غير المعقول أن يتحدى بشىء ليس على يديه.

الثانى : أن التعريف غير جامع لأن القوم عدوا من المعجزات ماهو متقدم غير مقرون بالتحدى كإظلال الغمام لرسول الله ﷺ[2].

والجواب : أن هذا الإعتراض لا يرد أصلا على تعريف الرازى؛ لأن المعجزة مقيدة بالمقارنة بالتحدى وما ذكره المعترض هو صورة من صور الإرهاصات وهى غير المعجزة.

---

(١) الشعوذة هى خفة اليد. بواسطتها يرى الشخص أشياء غريبة على أنها حقيقية وهى ليست كذلك. كما يصنع الحواة والنصابون راجع صـ ١٤٦ من تبسيط العقائد الإسلامية للاستاذ حسن أيوب.

(٢) المقاصد جـ ٢ صـ ١٣٠.

الثالث : أن التعريف غير جامع، لأن المعجزة قد تتأخر عن التحدى، كما إذا قال معجزتى ما يظهر يوم كذا فظهر.

والجواب : إن هذا الاعتراض من وهم المعترض وخياله؛ لأنه لم يحدث فى تاريخ النبوات أن جاء نبى يدعى النبوة ويعد الناس بظهور معجزته بعد حين، ومع ذلك فقد رد بعض علماء الكلام على هذا الوهم فقالوا: إن التأخر إن كان بزمان يسير يعد مثله فى العرف مقارنا فلا إشكال. وان كان بزمن طويل فالمعجزة عند من اشترط المقارنة هو ذلك القول المقارن إذ هو من قبيل الإخبار عن المغيبات.

شروط المعجزة :

وضع العلماء للمعجزة شروطا سبعة[١].

الأول : أن تكون المعجزة أثراً من آثار قدرة الله سبحانه وتعالى وعلى هذا فكل ما يصنعه البشر من غرائب المخترعات أو يظهر على أيدى بعضهم من الشعوذات لا يمكن أن يسمى معجزة مهما بدا غريباً أو عجيباً أمام العقل.

الثانى : ألا يكون هذا الخارق مقدوراً للنبى لأنه لو كان فى نطاق قدرته وإمكاناته، لما كان معجزاً للخلق، لأن النبى إنسان كسائر الناس ولو وقع منه هذا الأمر بمقتضي قدرته البشرية، لوقع من غيره، فمع أن الرسول كان يخبر عن المغيبات التى يوحى إليه بها من الله، إلا أنه كان عاجزاً عن الإتيان بمثلها بمقتضى قدرته البشرية، وهذا ما تشير إليه الآيات الكريمة «يسئلونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى، لا يجليها لوقتها إلا هو، ثقلت فى السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسئلونك كأنك حفى عنها، قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون، قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لا ستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون»[٢].

---

(١) راجع شرح البيجورى على جوهرة التوحيد ص ٤٦.
(٢) الأعراف (١٨٧، ١٨٨).

وها هو ذا ﷺ فى قصة الإفك يقف صامتاً لا يستطيع أن يقول كلمة واحدة فى حق زوجته، كلمة فصل[١] تقطع ألسنة المنافقين، ولم يقل إلا هذه العبارة «إنى لا أعلم عنها إلا خيرا» ومضى شهر بأكمله وهو يسأل ويستشير أصحابه وكل يقول: ما علمنا عليها من سوء. ولكنه لم يزد على قوله لها: «ياعائشة أما أنه قد بلغنى كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله».

فهذا قوله فى القضية وهو قول البشر الذى لا يعلم الغيب، وكلام المسلم المتثبت الذى لا يتبع الظن ولا يقول ما ليس له به علم، ولم يفصل فى الأمر إلا بعد نزول صدر سورة النور معلناً براءتها ومؤيداً عفتها وشرفها وطهارتها.

هذا هو الذى أخبر عن عشرات المغيبات الماضية والحاضرة والمستقبلة يعجز بقدرته البشرية عن الفصل فى خبر يمس شرفه وكرامته حتى يأتيه الخبر من السماء.

ومع أن رسول الله ﷺ قد أتى بكثير من خوارق العادات مثل نبع الماء من بين أصابعه، وصعوده إلى السماء فى ليلة الإسراء والمعراج، وغير ذلك، إلا أنه حين طلب منه المشركون بعض المعجزات الحسية ووقفوا إيمانهم عليها، تبرأ من حوله وقوته وقال لهم ما أنا إلا بشر رسول وهذا ما تحكيه الآيات الكريمة «وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا»[٢].

وليس هذا شأن محمد وحده بل هكذا سائر الأنبياء، فقد عجزوا بقدرتهم عن كشف حجب الغيب، أو أن يعلموا إلا ما يعلمهم ربهم.

---

(١) مالك بن نبى – الظاهرة القرآنية ص ٢٢٠.
(٢) الإسراء (٩٠ – ٩٣).

فهذا نبى الله يعقوب عليه السلام تراه يتهم بنيه حين جاءوا على قميص يوسف بدم كذب، ثم يعود فيتهمهم حين قالوا له إن ابنك سرق، فيقول لهم فى كل مرة «بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل»[١] وقد أصاب فى المرة الأولى ولكنه فى الثانية اتهمهم وهم برءاء.

وهذا موسى عليه السلام تراه يقول للعبد الصالح: (قال ستجدنى إن شاء الله صابراً ولا أعصى لك أمراً) ثم ينسى فلا يطيق معه صبراً ولا يطيع له أمراً[٢].

إذاً فأنبياء الله ورسله كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل المعجزات التى وقعت على أيديهم، وقد أطلنا الحديث فى هذه النقطة وأكثرنا من الشواهد عليها، لأن النصارى – قاتلهم الله – قد أضلتهم المعجزات التى ظهرت على يد عيسى مثل إحياء الموتى، وشفاء المرضى، والإخبار عن المغيبات، فظنوا أن هذه الأمور قد وقعت من عيسى بمقتضى قدرته الخاصة فأثبتوا له الألوهية. ولو علموا حقيقة المعجزات وأن الأنبياء لايد لهم فيها ولادخل لقدرتهم عليها، وإنما أتوا بها بقوة الله الذى أرسلهم، لما وصلوا إلى ما صلوا إليه من الضلال، والغريب فى الأمر أن هناك نصوصاً فى الإنجيل تؤكد على أن عيسى لم يفعل هذه الخوارق بقدرته بل بقدرة الله الذى أرسله فقد جاء فى إنجيل متى «قال للمفلوج قم واحمل فراشك واذهب إلى بيتك فقام ومضى إلى بيته فلما رأى الجموع تعجبوا ومجدوا الله الذى أعطى الناس سلطاناً مثل هذا»[٣].

والذى ينبغى أن يلتفت إليه النصارى فى هذا النص هو أن الجماهير التى شاهدت الواقعة لم تمجد عيسى، وإنما مجدت الله الذى أعطى عيسى هذا السلطان وجاء فى إنجيل لوقا أيضاً «يسوع المسيح رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب صنعها الله بيده فى وسطكم كما أنتم تعلمون».

---

(١) يوسف الآية ١٨ ، ٨٣.

(٢) راجع ص ٥٤ من النبأ العظيم الدكتور/ محمد عبد الله دراز.

(٣) إنجيل متى ص ٩ العدد ٦ – ٨.

ومعنى هذا النص أن الله قد برهن على نبوة عيسى بهذه الخوارق التى أظهرها على يديه، ومع كل ذلك نجد النصارى يدعون ألوهية عيسى ويستدلون على ذلك بإحياء الموتى وأخباره بالمغيبات[١]. وهذا كما قلنا سابقا هو سر وقفتنا المتأنية عند هذا الشرط.

الثالث : أن تكون خارقة للعادة – وهى ما اعتاده الناس وألفوه من السنن الكونية – وقوانين الفطرة التى أودعها الله فى الكون. مثل إحياء الميت أو نطق الجماد أو الإتيان بكلام من مثل ما يتكلمه البشر ومع ذلك يعجزون عن الإتيان بمثله، أما الأمور العادية فلاتصلح لذلك.

الرابع : أن يتعذر معارضتها وبذلك يخرج السحر وغرائب المخترعات اذ يمكن الإتيان بمثلها.

الخامس : أن يقع الخارق على يد النبى، مع المقارنة للدعوى.

السادس : أن تكون المعجزة موافقة لطلب الرسول فلو قال آية صدقى أن تمطر السماء فانفجرت الأرض بالماء، لا يعد ذلك دليلا على صدقه اذ لابد من المطابقة بين ما يدعيه وبين ما يظهر على يديه.

السابع :ألا تكون المعجزة مكذبة له، فإذا قال معجزتى نطق هذا الفرس فنطق بأنه كذاب لم يكن هذا الأمر معجزا ولامؤيد لصدقه فى دعواه[٢].

وفرق الإمام الرازى بين تكذيب الجماد والحيوان وتكذيب الإنسان، فلو أنه قال معجزتى أن أحي هذا الميت فأحياه ولكنه نطق بأنه كذاب لا يكون ذلك قادحا فى معجزته، لأن التحدى وقع بمجرد الأحياء وقد حصل أما تكذيبه فلا يعتد به لأن الإنسان مختار فى التصديق أو التكذيب، أما لو قال معجزتى نطق الجماد فنطق وكذبه لكان قادحا فى معجزته لأن النطق داخل فى المعجزة.

---

(١) راجع كتابنا «مشكلات العقيدة النصرانية» ص ٨١ وما بعدها ص ٩١.
(٢) المواقف جـ ٨.

– وفرق القاضى بين من طالت حياته فلا يعتد بتكذيبه وبين من كذبه ومات فيعتد بتكذيبه فكأنه أحياه الله لتكذيبه[١].

– وذهب ابن دهاق فى شرح الإرشاد إلى أن تكذيب اليد والجماد ونحوها غير قادح، لأن التحدى إنما وقع بمجرد النطق وقد حدث أما التصديق فلم يقع التحدى به حتى يضر تخلفه كما لو قال أيتى أن يصدقنى هذا الضب فكذبه فيكون قادحا لا محاله[٢].

– ومنهم من أرجع المسألة إلى بيان وجه الدلالة، فقد جرت العادة بخلق العلم بالصدق عقب ظهور المعجزات، فإن حصل العلم الضرورى بعد أى فعل من هذه الأفعال فهو معجز وإلا فلا[٣].

وهذا ما سوف يزداد وضوحا من خلال بياننا لوجه دلالة المعجزات على صدق الرسول فى الصفحات التالية.

---

(١) شرح السنوسية صـ ٤٥٣.
(٢) السابق صـ ٤٥٤.
(٣) الارشاد صـ ٣١٥.

وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول:

لم يختلف أحد فى دلالة المعجزات على صدق الرسل وإنما وقع اختلافهم فى وجه هذه الدلالة.

– فمنهم من ذهب إلى أن دلالتها عقلية، فإن ظهور الأمر الخارق على وفق الدعوى مع العجز عن المعارضة يدل عقلا على إرادة الله تصديق من ظهرت على يديه، وهذا رأى المعتزلة ومن تبعهم، وكلامهم قائم على أساس أن علاقة السبب بالمسبب ضرورية لا تتخلف. ولا عبرة بكلامهم، لأن الأمور الخارقة قد توجد دون أن تدل على الصدق كالكرامات وأحوال الآخرة، فلو كان إرتباط السبب بالمسبب ضرورياً كما يدعى هؤلاء لدلت هذه الخوارق على الصدق وهو لا يحدث[1].

فإغراق الله لفرعون وقومه فى البحر كان آية بينة لموسى، ومع ذلك قد يغرق الله أمما كثيرة. فلا يكون ذلك دليلا على نبوة نبى.

– ومنهم من ذهب إلى أن وجه دلالتها (الوضع) كدلالة الألفاظ على معانيها. فكلمة معجزة وضعت لكى تدل على صدق النبى. إذا فوجه دلالتها الوضع، وكأن الله يقول من خلالها رسولى صادق فصدقوه.

أما أهل السنة، فقد ذهبوا إلى أن وجه دلالة المعجزة على صدق الرسول هو العادة، فالمعجزة تدل دلالة عادية على صدق الرسول، فهى إجراء الله عادته بخلق العلم بالصدق عقب ظهور المعجزة، وهذا ما عبر عنه التفتازانى بقوله: «إن المعجزة عند التحقيق تكون بمنزلة صريح التصديق لما جرت به العادة من أن الله يخلق عقبها العلم الضرورى بصدقه».

– وهذا الرأى قائم على أساس أن علاقة السبب بالمسبب عادية لا ضرورية فالله هو خالق الأسباب والمسببات وقادر على إيجاد السبب دون وجود المسبب.

---

(١) المقاصد جـ ٢ صـ ١٣١.

وهذا ما عبر عنه إمام الحرمين بقوله: «إن المعجزة لا تدل على صدق النبى حسب دلالة الأدلة العقلية على مدلولاتها، فإن الدليل العقلى يتعلق بمدلوله بعينه ولا يقدر فى العقل وقوعه غير دال عليه، وليس كذلك سبيل المعجزات»(١).

وليست كذلك المعجزة أو الأمر الخارق للعادة، فانقلاب العصا حية لو وقع بداية من فعل الله من غير دعوى نبى، لا يكون دالا على صدق أحد، إذا فهناك فرق بين المعجزات وبين الدلالات العقلية، إذ دلالات المعجزات قائمة على أساس ما اعتاده الناس من أن الله يخلق علما ضرورياً لمن شاهدها بصدق النبى الذى ظهرت على يديه هذه المعجزة.

وعلى هذا فرأى المعتزلة لا عبرة به وكذلك رأى القائلين بالوضع إذ هو صورة أخرى من صور الدلالة العقلية(٢)، فلو أننا قلنا إن المعجزة موضوعة للصدق للزم من ذلك ألا يتخلف الموضوع عما وضع له، لأن الموضوع يدل عقلا على ما وضع له بعد ملاحظة الوضع، وبذلك يرد عليه ما ورد على أصحاب الدلالة العقلية.

حكم المعجزات:

لاشك أن المعجزات من الأمور الممكنة الوقوع لقدرة الله سبحانه وتعالى، وهذا الإمكان ضرورى لا يحتاج إلى دليل ولا برهان، لأنها وقعت بالفعل وشاهدها من شاهدوا الأنبياء وتواتر نقلها عبر التاريخ إلينا، والمتواترات فرع من الضروريات يجب التسليم بصدقها بمجرد سماعها.

ومع ذلك فقد شكك قوم فى إمكان المعجزات، وهم كما وصفهم الإمام الباقلانى «بين جاهل وجاحد وبين كافر نعمه وحاسد، وبين ذاهب عن طريق الإستدلال بالمعجزات وحائد عن النظر فى الدلالات، وناقص فى باب البحث، ومختل الآلة فى وجه الفحص ومستهين بأمر الأديان وغاو تحت حبالة الشيطان، ومخذول بخذلان الرحمن»(٣).

---

(١) الارشاد صـ ٢٢٤ وقارن صـ ٤٦٠ من شرح السنوسيه.
(٢) قارن تفسير المنار جـ ١ صـ ٢١٧.
(٣) إعجاز القرآن صـ ٢٠٤.

وقد أورد هؤلاء الجهلة والجاحدون بعض الشبه التى تشكك فى وقوع المعجزات، منها الشبه القديمة، ومنها الحديثة التى يدعيها اليوم دعاة العلم التجريبى وسوف نعرض لما يستحق الرد من هذه الشبه ثم نناقشه فيما يأتى:

شبه القدماء:

١ - فقد ذهب بعضهم إلى استحالة المعجزات واحتج بشبهة مؤداها: أن تجويز خوارق العادات سفسطه، إذ لو جازت، لجاز أن ينقلب الجبل ذهبا والبحر دهنا، وينقلب المدعى للنبوة إنساناً آخر إلى غير ذلك من المحالات.

والجواب عن هذه الشبهة هو: «أن المراد بخوارق العادات أمور ممكنة فى نفسها ولكنها ممتنعة فى العادة بمعنى أنه لم تجر العادة بوقوعها إلا تصديقا لرسول أو نبى وبمعنى آخر فالمعجزات ليست من نوع المستحيل وقوعه كالجمع بين المتناقضين مثلاً، بل هى من النوع الذى يقول العقل بإمكان وقوعه، ولا يمكن لعاقل أن ينكر هذا الإمكان فهو ليس أكثر من خلق السموات والأرض وإبداع صنعها وإتقانه، فماذا تساوى معجزة انقلاب العصا حية أمام إبداع السموات والأرض؟ ففرق عظيم بين ما هو ضد العقل وما هو فوق العقل، فما هو ضد العقل يلغيه العقل ويعطله مثل المستحيلات السابقة، وأما ما هو فوق العقل فلا يستطيع العقل أن يحكم باستحالته وإلا كان حكما بلا دليل، فما بالنا إذ أيده الواقع أفلا يليق بالعقل المنصف أن يحكم بإمكانه[١]؟

إذاً فإمكان المعجزات أمر يجب التسليم به ولا يصح لعاقل أن ينكره وخصوصاً إذا علمنا أن خرق العادات إعجازاً لنبى أو كرامة لولى أصبح عادة مستمرة فى كل عصر، فكيف يصح قول من يقول باستحالتها؟.

٢ - وذهب بعضهم إلى أن المعجزات على تقدير ثبوتها فإنها لا تثبت إلا لمن شاهدها فقط ولا تثبت على الغائبين لأن أقوى طرق نقلها التواتر وهو لا يفيد اليقين وقد أورد هؤلاء عدداً من الشبه[٢] على إفادة التواتر لليقين وهى لا

(١) راجع صـ ٣٦٧ من المجموعة الكاملة للعقاد المجلد الخامس.
(٢) المقاصد جـ ٢ صـ ١٣١.

تستحق الذكر، لأنها مجرد مغالطات ذلك أن المتواترات هى أحد أقسام الضروريات، والضروريات بدهية لا تقبل المناقشة ولا يجادل فيها إلا مختل العقل، أو جاهل بطرق الإستدلال، فإجماع أهل الأديان على أنه قد كانت معجزات. يوجب التسليم بها لتواتر الخبر وإلا لما صح من أحداث التاريخ شيء ولما سلمنا بوجود أمثال أفلاطون وأرسطو وأرشميدس وغيرهم من الذين تواترت إلينا أخبار وجودهم.

٣ - ومنهم من سلم بوقوع الخوارق لكنه عارض فى وجه دلالتها على صدق الرسول، وأوردوا بعض الشبه الساذجة ومنها إحتمال ألا يكون ذلك الخارق من الله، أو إحتمال ألا يكون خارقا للعادة بل إبتداء عادة أرادها الله سبحانه وتعالى، أو إحتمال أن يكون هذا الأمر مما يعارض إلا أنه لم يعارض(١).

والجواب عن هذه الاحتمالات وغيرها مما يمكن للعقل أن يفترضه هو: أن هذه الافتراضات الساذجة، لا تنافى العلم الضرورى الذى يقع عقب ظهور المعجزة وإلا لما كان هناك يقين أصلا، والدليل على ذلك أن الناس صدقوا بالرسل وآمنوا بهم عقب إظهار الله للمعجزات على أيديهم من غير التفات إلى هذه الإحتمالات، كما أن الذين أوردوا هذه الإحتمالات لم يفهموا معنى المعجزة فقد نص العلماء على أنها - أولا - فعل من الله منسوب إليه لا إلى غيره، لأن غيره يعجز عن الإتيان بمثلها - وعلى أنها أمر خارق للعادة، وليس فيه أى إحتمال لأن يكون بداية عادة - وعلى أن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، إذن فالاحتمالات التى أوردها هؤلاء غير واردة على المعجزة.

شبه المحدثين:

شكك بعض مدعى العلم التجريبى المحدثين فى صحة المعجزات وعرضوا عدداً من الشبه منها:

---

(١) السابق ونفس الموضع.

١ – أن العلم الحديث أثبت استحالة المعجزات لأنها خرق للسنن الكونية وخرق السنن الكونية مستحيل طبقا لقانون الحتمية، وبناء عليه حاولوا أن يفسروا بعض المعجزات تفسيراً طبيعياً بحيث تكون أموراً عادية متسقة مع قوانين الحتمية والسببية، فقالوا إن طوفان نوح كان ظاهرة طبيعية ناتجة من فيضان أو أمطار غزيرة، وفسروا فلق البحر لموسى بظاهرة المد والجذر. وقالوا بأن إهلاك بعض الأمم المكذبة كان بصواعق تنزل من السماء(١).

٢ – أن المعجزات قد مرت وانتهت ولا يمكن إخضاعها للبحث العلمى للتأكد من صحتها(٢).

المناقشة:

ويمكن الرد على هؤلاء الجاحدين بما يأتى:

أولاً – أن العلم الحديث لم يثبت إستحالة المعجزات كما تدعون وإنما الذى أثبته العلم إستحالة خرق أحد من البشر مهما كان علمه لشىء من سنن الكون ونواميسه، ومعنى هذا أن العلم يتفق معنا فى أن المعجزة لا تخضع لسلطان البشر ولا يستطيع أى إنسان أن يأتى بمثلها، فإبتلاع العصى لعصى سحرة موسى وحبائلهم، وإبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى، وإنشقاق القمر هذا وأمثاله مما يعرف العلم أنه لا يقدر عليه البشر ومن هنا لابد من التسليم بأنه من عند خالق البشر.

والشرط المميز للمعجزة عندنا أن تكون من عند الله لا مما يقدر عليه البشر وإذاً فلا تعارض بين ما قاله العلم وما قلناه عن إمكانات المعجزات ووقوعها.

كما أن المعجزات فى نظرنا ليست خرقا لقانون السببية ولا هدما له، ذلك أن الإيمان بالمعجزات فى الإسلام نعده تقديراً لموقف عقلى يستوجبه منطق الإيمان بوجود إله خالق للكون ومهيمن عليه ومتصرف فيه ومقدر لسننه ونظامه، فما دمنا

(١) كمال بنيامين – العلم والمنطق والإيمان صـ ١١٢.
(٢) الإسلام فى عصر العلم صـ ١٢٨ وما بعدها. وقارن صـ ١٠١ من كتاب «معجزات قلب القرآن» هاشم محمد سعيد دفتر دار – دار الشروق جده سنة ١٩٨١.

مؤمنين بأن الله هو الخالق للكون والمسير له وفق نظام اختاره له، فهو قادر على أن يستبدل بهذا النظام نظاماً ما آخر أو أن يخرقه إذا شاء[١].

وإذاً فنحن لا نقول إن المعجزات قد حدثت بدون سبب حتى نخرق قانون السببية الذى يقوم عليه العلم، وإنما نقول إنها قد حدثت بسبب ولحكمة من الله سبحانه وتعالى. فالفرق بيننا وبينهم، أنهم يقفون عند حدود الأسباب والمسببات الظاهرة، بينما نترقى نحن حتى نصل إلى مسبب الأسباب وهو الله.

ثم إن قانون الحتمية الذى يحتجون به دائماً، لم يعد له قيمة اليوم على ضوء النظريات العلمية المعاصرة وخصوصاً نظرية النسبية التى قلبت مفاهيم العلم الحديث رأسا على عقب وأقرت بوجود اللامحسوس فى الوجود حين حولت المادة إلى طاقة غير مرئية إلا بآثارها ولم تضع أى إعتبار لحتمية نيوتن ولانظرياته[٢].

كذلك فإن أحدث النظريات الرياضية وهى نظرية الإحتمالات[٣] (والتى أشار إليها الإمام الغزالى من خلال فكرته عن العلاقة بين السبب والمسبب) لا تضع أى اعتبار لقانون الحتمية الذى نادى به نيوتن. وإذا كانوا يدعون بإمكان تفسير المعجزات المادية تفسيراً طبيعياً فإنهم لا يستطيعون ذلك أبدا مع المعجزة العقلية العلمية الأبدية الخالدة وهى القرآن الكريم.

ثانيا – أن العلم الحديث ليس من مهمته أن يفصل فى مثل هذه الأمور لأنها ليست من مجاله ولا موضوعه، لأن النبوة أمر روحانى، واذا كان العلم التجريبى قد عجز عن الوصول إلى كل سنن الفطرة المتعلقة بالمادة التى هى موضوع علومه، فهل يليق به أن يفصل فى السنن المتعلقة بعالم الروح.

---

(١) د. محمد المبارك – الإسلام والفكر العلمى صـ ١٢٠.

(٢) راجع كتاب إينيشتاين والنسبية صـ ٨٢ وما بعدها د. محمد عبد الرحمن مرحبا، بيروت سنة ١٩٧٤.

(٣) راجع شواهد العلم فى هدى القرآن – صـ ٦٣ الأستاذ محمد سعدى المقدم.

والخلاصة أن المعجزات ظواهر خارجة عن جنس ما يدرسه العلم التجريبى وليس من حقه أن ينكرها أو يدعى استحالتها، بل كان من الأولى أن يكون العلماء التجريبيون أول من يؤمن بالمعجزات، لأنهم وهم بشر محدود العلم والقدرة، استطاعوا عن طريق العلم الذى علمهم الله أياه أن يتصرفوا فى الكون، ويأتوا بالأعاجيب التى ما كان من الممكن أن يصدقها أهل العصور القديمة لو أخبروا بها، أم أنهم يظنون أنهم أكثر قدرة وعلماً من الله الذى أمدهم بالقدرة والعلم؟.

ثالثاً : أما قولهم إن المعجزات قد مرت ولا يمكن دراستها للتأكد من صحتها فهذا الكلام قد يصدق على معجزات الأنبياء السابقين فقد مرت وانتهت ولم يشهدها إلا أهل عصرها، كما أن الكتب التى أخبرت بها تعرضت لتحريف ولتغيير ولم يثبت أنها نفس الكتب التى جاء بها أنبياؤهم[1] ولكن لا يمكن أن يصدق على معجزة رسول الله ﷺالكبرى وهى القرآن الكريم، فلقد ذهبت المعجزات كلها وبقى القرآن وتغيرت الكتب السابقة وحرفت ولم يتغير القرآن ولم يحرف، بل بقى كما هو وكما نزل على سيدنا محمد ﷺيتحدى البشرية كلها بإعجازه. فمن يريد أن يفحصه من العلماء التجريبيين بعقلية علمية فليفحص، ولقد فحصه كثير من الملحدين وانتهى الأمر بالتسليم بإعجازه وبالإيمان به.

وهاهى وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم تلزم كل عاقل بصدق هذا الكتاب، وهذا ما سوف نفصله فى الباب الثانى إن شاء الله.

• • •

(١) راجع مشكلات العقيدة النصرانية والعقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية للمؤلف.